المحاضرة الثانية:2- البذور الأولى للفلسفة المعاصرة مع نتشه

نتشه (Friedrich)Nietzsche (1844-1900)هو أحد أكبر الفلاسفة الذين كان لهم تأثير في القرن العشرين، واسمه يرتبط بمطرقته التي أتت على كل م شيّده الإنسان من علم وفلسفة وثقافة و أخلاق. بل إن مطرقته طالت جميع المقدسات. لقد قابل الماضي برفض شديد، موظفا كل ما أوتي من قوة الأسلوب، ودقة الملاحظة، وشدة الحماسة. وساعده على ذلك "منهجه الفيلولوجي" الذي جعله يفحص عن مصادر و أصول الفكر اليوناني و اللغة اليونانية. ولئن خالف كل الفلاسفة في قولهم أن سقراط و أفلاطون وأرسطو أحسن من مثّل الفلسفة اليونانية، فذلك لاعتقاده أن الفكر في عصر ما قبل سقراط كان غنيا وخصبا ويعبّر بحقّ عن أصالة الفكر اليوناني. و أن حكم الفلاسفة فيه على الحياة و على الوجود بشكل عام هو حكم غني بالمعاني مقارنة بمن جاء بعدهم، "لأن الحياة التي شهدوها كانت ذات امتلاء مفرط".

فالحضارة الإغريقية وحدها التي تحدد مهمّة الفيلسوف، وتبرر شرعية الفلسفة. لذلك جاءت حملة نتشه على سقراط و أفلاطون عنيفة. لأن سقراط أول من قدس العقل، وأكد شرعيته في إدراك الحقيقة. وتبعه أفلاطون "بترّهاته" التي جعلته يفصل بين عالم حقيقي و عالم غير حقيقي. فتقسيم العالَم إلى عالم حقيقي و عالم ظاهر سواء على طريقة أفلاطون أو على الطريقة "المسيحية"، أو حتى على طريقة "كانط" - الذي لا يمثّل حسب نتشه- إلا مسيحي متستر، لا يمكن أن يصدر إلا بإيعاز من الانحطاط، وهو يدلّ دائما على حياة آفلة. لأن العالم الحقيقي الذي يسهل بلوغه على كل شخص هو هذا العالم الذي نعيشه، هو هذه الحياة التي نحياها. "فسقراط إذن يمثل بحق بداية انحطاط الحضارة اليونانية"، لأن فلسفته لم تكن سوى رد فعل سلبي بإزاء الحياة. ولأنه تبنى موقفا سلبيا منها، فلن تكون آراؤه أبدا حقيقية، "بل إن أحكامه مجرد حماقات". وسقراط نفسه - حسب نتشه - يقوم على سوء الفهم. وكل من جاء بعده ممّن سار على نهجه كان مُولَعا بالمفاهيم المجرّدة، التي تعرض كل شيء للخطر وتقتل كل حقيقة.

إذن يميل نتشه إلى تقسيم الفلسفة اليونانية إلى مرحلتين: مرحلة الإبداع و العطاء الفلسفي، وهي التي سبقت سقراط، ويمثلها "هيرقليطس"، و"انكساغوراس"، "ديمقريطس"،و "طاليس" وغيره من فلاسفة أيونيا وإيليا الأوائل. وهؤلاء جميعا عاشروا للمعرفة فقط. وكان حوارهم رفيع المستوى، يميزه الجدّ و الخصوبة. أما المرحلة الثانية فيمثلها سقراط ومن بعده، وهي مرحلة انحلال وانحطاط. سادت فيها الفلسفات "الهجينة" التي تفتقد إلى الأصالة. ويعدّ أفلاطون أول هجين كبير لأن نظريته في "المثل" تجمع عناصر سقراطية، و فيثاغورثية و هيرقليطية، لذلك فهو لا يمثّل نموذجا صافيا. ويتعجب نتشه من جرْي الفلاسفة وراء المفاهيم العقلية المجردة. إنهم يلهثون وراءها دون توقف، وحينما ينكشف لهم عجزهم عن إدراك الحقيقية بواسطتها، يبدءون في البحث عن مبررات لتفسير كونها تنفلت منهم. و الأشدّ غرابة حينما ينادون بضرورة التحرر من وهم الحواس بحجة أنها تخدعنا، وينسون أن التاريخ كله ليس سوى إيمانا بالحواس، إذ هي التي تكشف عن الصيرورة و اللاثبات، وعن التحول والتغير، ومن ثم هي لا يمكنها أن تكذب أبدا.

يقدم نتشه نقدا جارحا للميتافيزيقا لأنها تصطنع قيما مزيفة، متعالية عن الواقع الإنساني، وتخفي عن الإنسان حقيقته بل حقيقة وجوده. ومن ثم تضفي على عقله أوهاما من شأنها أن تباعد بينه و بين الحياة. وتهيب به نحو قيم مزعومة خاطئة، هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الواقع. إنها تشيّ له عالما آخر يسوده الكمال و الثبات والخير، وهذا عين الهذيان حسب نتشه. و الملاحظ هنا أن" النقد النتشوي" يختلف عن "النقد الكانطي"، فإذا كان مشروع "كانط" يؤلّه العقل و الإدراك، فإن نتشه على العكس من ذلك يوجه نقده إلى القيم، وإلى العقل لكن بأداة أخرى خارجية هي "إرادة القوة" كمبدأ خلاق و مبدع. وهو ما أصبح معروفا بالنقد الجينيالوجي. و الجينيالوجيا هي بحث متواصل عن البدايات بكل ما تتسم به من تشتت وقبح و سخافة، إنها عمل مضاد للميتافيزيقا يروم إلى خلخلتها، وهدم قلاعها، و الوقوف على ما تحاول إخفاءه من قبيل الهوامش، التفاصيل، الصراعات، وغيرها. ومجمل القول أن الجينيالوجيا "هي تتبع وتعقب مراحل نشأة وتطور القيم و المعايير الميتافيزيقية بالإحالة دائما إلى الشروط الوجودية و المصلحية المنتجة لها".

ينصحنا نتشه في خطابه النقدي للميتافيزيقا و للتراث الفلسفي بأن لا نخلط بين شغّيلي الفلسفة والعلم، وبين الفلاسفة الحقيقيين. النوع الأول يعيش من الفلسفة، ومحور اهتماماته صياغة أحكام من شأنها أن تبقي القيم القديمة، وترسخها، و"قد يكون "كانط" و "هيجل" أفضل من مثل هذا النوع". أما النوع الثاني فيشمل الفلاسفة الحقيقيين القادرين على تشريع قيم جديدة، لأنهم يعتقدون أن المعرفة بالنسبة إليهم خلق و إبداع، وعلى جهدهم أن يُوجّه إلى نقد القيم السائدة، وخلق قيم جديدة تقتضيها الحياة. ويتأسف نتشه على أن تاريخ الفلسفة من "السقراطيين" إلى "الهيجليين" هو تاريخ خنوع و خضوع الإنسان، وتاريخ تبريرات، بل تاريخ نفي للحياة، وانتصار لحياة مريضة هي أقرب ما تكون إلى حياة العبيد منها إلى حياة الأشراف. وعلى دلك كانت أفكار نتشه موجهة تحديدا إلى الحضارة الغربية، التي سادها مبدأ" إنكار و تبخيس الحياة". على أن نفهم الحياة هنا بمعناها الأوسع، أي أنها المبدأ الكامن وراء الحضارة و المعرفة و السلوك. وهي أصل لكل قيم أخلاقية وفكرية و سياسية. فسيطرة "الروح الإنكارية" خلقت نمطا معينا من التفكير المضطرب الذي يسوده القلق و التوتر، تجلّى خاصة في "الهجانة" و الفوضى، و الشذوذ و التطرف الفكري، بين من يرْكن إلى المثالية المطلقة، ومن يتجه نحو اللاعقلانية، بين من يدعو إلى الفردية، ومن يدعوا إلى القومية أو العرقية أو غيرها. فلاغرو إذن "أن يصف نتشه الدول الحديثة بقرى النمل، تسود قادتها الخسة و الدونيّة والتهريج". وما يزيد الأمر سوءا حسب نتشه هو أن الإنسان المثقف اليوم عدوّ للثقافة. لأن درجة انحطاطه جعلته ينزع إلى إنكار مرضه، و يشعر بالضيق و الغضب إذا ذُكّرَ بضعفه ونقصه. بل حتى الهواء الذي يتنفسه ملوث. وعنى ذلك أن المرض لم يسْر فقط في المظاهر الفكرية والثقافية، بل في جميع مجالات الحياة، ويضرب بجذوره في نمط الحياة اليومية، ليطال طريقة الكلام و اللباس و الذوق و الأكل و في كل تجليات السلوك.